آليات الحجاج اللغوي ووظائفه في الزيارةِ الجامعة للأئمة الأطهار المروية عن الإمام الهادي عليه السلام

م.د بان أمين عمر الربيعيّ

كلية التربية/ جامعة سامراء

Ban.amin@uosamarra.edu.iq

آليات الحجاج اللغوي ووظائفه في الزيارةِ الجامعة للأئمة الأطهار المروية عن الإمام الهادي عليه السلام

م.د بان أمين عمر الربيعيّ

كلية التربية/ جامعة سامراء

Ban.amin@uosamarra.edu.iq

ملخص

إنّ الخطاباتِ الدينية أو التوجيهية في التراث المروي عن الأئمة الأطهار والمتجسّد في مدوّنات متنوعة كالخطب، والرسائل، والأدعية، والزيارات قد صيغت في الحقيقة بهيأةٍ لغوية مقصودة، تتنوع فيها أساليب ملفوظاتها، ومفرداتها على وفق انتقاء واختيار دقيقَينِ بما يضمن لها تحقيق وظيفتها الحجاجيّة التي سيقت من أجلها، وتأسيسًا عليه جاءت فكرة هذه الدراسة في اختيار مدوّنة الزيارة الجامعة للأئمة الأطهار والمروية عن الإمام عليّ الهادي عليه السلام بوصفها ميدانًا تطبيقيًا للكشف عن الآليات اللغوية التي اشتملت عليها ملفوظاتها وما تحققه من وظيفة توجيهية؛ نظرًا لأهمية هذه الزيارة وزخارة متنها اللغويّ بالتأليفات الحجاجية المتنوعة التي تنطوي على مقاصد وغايات عميقة، وقد قسمت هذه الدراسة على ستة مطالب، يسبقها توطئة اشتملت على محورين؛ هما سند الزيارة، فضلًا عن مفهوم الحجاج اللغوي، ثم خُتم البحث بخاتمة أُجملت فيها جملة من النتائج في الدراسة.

الكلمات المفتاحية: آليات الحجاج، الزيارةِ الجامعة، الأئمة الأطهار.

Mechanisms of Linguistic Argumentation and Its Functions in the Comprehensive Ziyara of the Pure Imams Narrated by Imam al-Hadi "Peace Be Upon Him"

Assistant Professor Ban Amin omar Al-Rubaie

University of Samarra | College of Education

Ban.amin@uosamarra.edu.iq

Abstract:

Religious or directive discourses in the heritage narrated from the Pure Imams, manifested in various collections such as sermons, letters, supplications, and visitations, are in fact formulated with intentional linguistic structures. Their expressions and vocabulary are meticulously chosen to ensure the achievement of their argumentative function for which they were intended. Based on this, the idea of this study emerged to select the text of the Comprehensive Ziyara of the Pure Imams, narrated by Imam Ali al-Hadi "Peace Be Upon Him," as an applied field to uncover the linguistic mechanisms contained in its expressions and what directive function they achieve. This is due to the importance of this ziyara and the richness of its linguistic content with diverse argumentative compositions that encompass deep purposes and objectives. This study is divided into six sections, preceded by an introduction that includes two main points: the chain of narration of the ziyara, and the concept of linguistic argumentation. The research concludes with a summary that compiles a set of findings from the study.

Keywords: *Mechanisms of Argumentation, Comprehensive Ziyara, Pure Imams*

توطئة

أولًا: سند الزيارة

أمّا ما يخص سند هذه الزيارة فقد ذكر العلماء أنّها من أصحّ الزيارات، وأوثقِها سندًا؛ ويغنينا عن الإطالة في الحديث عن ذلك ما ذكره في سندها الشيخ الصدوق ابن بابويه القمي (ت٣٨١هـ) في كتابه «من لا يحضره الفقيه»: (روى محمّد بن إسماعيل البرمكي، قال: حدّثنا موسى بن عبدالله النخعي، قال قلت لعلي بن محمّد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام: علّمْني يا ابن رسول الله قولاً أقوله بليغاً كاملاً إذا زرت واحدًا منكم، فقال: إذا صرتَ إلى الباب فقف واشهد الشهادتين... وقل: السلام عليكم يا أهل بيت النبوة وموضع الرسالة....إلخ) (الصدوق، ١٣٩٠هـ،ج ٢: ٣٧٠؛ الصدوق، ١٤٠٤هـ،ج٢: ٣٠٥).

ثانيًا: مفهوم الحجاج اللغويّ

الحجاج (argumentation) لغةً: القصد، حجّه يحجّه أي: قصده (ابن منظور،١٤١٤هـ، ج٢: ٢٢٦«حجج»)، أمّا في الاصطلاح فتتعدد تعريفاته، ويتباين مفهومه تبعًا لاختلاف المشارب الثقافية والمعرفية لروّاد هذا المجال والمؤسسين لنظرياته، فيعرّفه بعضهم بأنّه حاصل نصيّ مؤلف من مكونات لغوية مختلفة متعلقة بمقام ذي هدف تأثيري إقناعيّ (باتريك شارودو،٢٠٠٩م: ١٦)، وبوجه عامّ فإنّ «الحجاج» المقصود به في هذا المقام هو خطاب لسانيّ تداوليّ قائم على معطيات لسانية تعمل بوصفها مؤشرات توجّه المتلقي إلى النتيجة المقصودة (بلقاسم دفة،٢٠١٤م: ٤٩٨)؛ فالحجاج منغرس في البنية القولية للملفوظ وتبعًا لهذا المفهوم يعرف هذا النوع من الحجاج بـ (الحجاج اللغوي).

إنّ عملية تحليل أي خطاب ينبغي فيها - منهجيًا- التمييزُ بين أمرين كلاهما متعلّقٌ بالآخر ومكمّل له،هما وظيفة الخطاب ومعناه، فالوظيفة يقصد بها هدفه التواصلي الذي يبتغي به إحداث تأثير أو استجابة ما، أما معناه فهو يتمثل بما يحمله من معطياتٍ، أو يتضمّنه من معلوماتٍ تتفعّل بناءً على الكفاية اللغوية للمتلقي (عبد السلام إسماعيلي علوي،٢٠١٧م: ٧٣)، وقد اتّفق أغلبُ العلماء المهتمين بدراسة اللغة على أنّ للغة وظيفة تؤديها، بيد أنّهم اختلفوا في نوع تلك الوظيفة؛ إذ كانت الفكرة السائدة في الدراسات اللسانيّة إلى وقتٍ قريب أنّ الوظيفة الأساس للغة هي «الوظيفة الإخبارية» إلى أن ظهرت الدراسات الحجاجيّة باتجاهاتها المتنوعة التي تبنّت إحداها نظرية تدعى بـ«الحجاج اللغوي» لرائديها الفرنسيَين «أوزوالد ديكرو» و«أنسكومبر»، فذهب أصحاب هذا الاتجاه أنّ الإخبارية ليست هي الوظيفة الأساس للغة، بل اللغة في الأصل عبارة عن حجاج محض موجّه بغاية التأثير، وبناءً عليه تكون «الوظيفة الحجاجية» هي الوظيفة الأساس للغة، وما الإخبارية إلا فرع منها (رشيد الراضي،٢٠١٤م:٨٣، و عز الدين الناجح،٢٠١١م: ٦٥)، والمقصود بالوظيفة الحجاجية هنا هي، وظيفة مخصوصة من وظائف اللغة، تتمثل في

عملية «التوجيه الحجاجيّ» (argumentative orientation) الذي تؤديه ملفوظات اللغة؛ إذ يُظهر هذا المفهوم بصورة جليّة العلاقة التي يعقدها النصّ الحجاجيّ مع المخاطَب أو القارئ المتلقي (عبد العزيز لحويدق،٢٠١٠م، ج٣: ٣٤٩)، فالنشاط التلفظيّ بوصفه عملية مقصودة لا يكون اعتباطًا من دون هدف، بل هو يُنتج إما استجابة لأمر ما أو ردّ فعل فهو بصورة عامة نِتاج رغبة ما لغاية ما (عبد السلام إسماعيلي علوي،٢٠١٧م:٧٣)، ولما كانت هذه الزيارة في الأصل هي إجابة عن سؤال سائل طلب قولًا بليغًا يقال عند زيارة الأئمة؛ لذا مما لاشكّ فيه أن تكون صياغتها اللغوية صياغة دقيقة ومقصودة في كل ملفوظ من ملفوظاتها؛ كي تتحقق غايتها المنشودة من التأثير في السامع «السائل» وغيره من المتلقين، ومن المؤكد كذلك أنّ يكون هناك انتقاء مقصود للآليات الحجاجيّة فضلًا عن المكونات اللغوية التي تتظافر معًا لتحقيق وظيفة الخطاب.

إنّ البناء العام للزيارة يمكن أن يتمفصل إلى فقرات، نُجملها بالآتي:

١. التحية والسلام على الأئمة باستعمال صفاتٍ الطابع الغالب فيها توكيد اتصالهم بالرسول الأكرم ﷺ: (السلام عليكم يا أهل بيت النبوة...)

٢. التحية والسلام عليهم بما يوضح امتيازهم من غيرهم من الخلق وسيادتهم عليهم: (السلام على أئمة الهدى ومصابيح الدجى...)

٣. السلام عليهم بما يوثق اتصالهم بالذات المقدسة: (السلام على محال معرفة الله ومساكن بركة الله...)

٤. بعد مقدمة التحية يبدأ الإقرار بالشهادة بالوحدانية لله تعالى، ونبوة الخاتم ﷺ.

٥. ويتلو ذلك الشهادة للأئمة وهي مجموعة من الحجج توجه المتلقي إلى أحقية أهل البيت عليهم السلام، والتحذير الشديد من مغبّة نكرانهم أو معاداتهم.

٦. ثمّ الختام بالدعاء والتشفع بهم إلى الله تعالى بوصفهم أبوابه سبحانه؛ للسمو بهذه النفس البشرية إلى المراتب العليا على المستويين الدنيوي والأخرويّ.

المطلب الأول: التساند الحجاجيّ في ملفوظات الزيارة:

إنّ الملفوظات التي تسمى (الحُجج) عندما تساق في خطاب حجاجيّ معين لبلوغ نتيجة معينة فإنها تتخذ أحد مظهرينِ بارزينِ، فهي أمّا أن تكون في حال «تساند حجاجيّ» أو «تعارض حجاجي»، فالأول يعني أن تكون الحجج جميعها تتجه صوب نتيجة واحدة، أما الآخر « التعارض» فمعناه أنّ بعض الحجج تُساق لنتيجة محددة ثم تساق الأخرى لدعم نتيجة معارضة للأولى (رشيد الراضي،٢٠١٤م: ٩٠-٩٢)، والذي سيسهم في معرفة ذلك الروابطُ الحجاجيةُ التي تؤدي وظيفة الإرشادات لتعيين تلك الحالات، وبالتأمل في ملفوظات الزيارة نجد أنّ التساند الحجاجيّ كان المظهر الأبرز، والأكثر حضورًا فيها، ومثال ذلك الملفوظات الآتية:

ح١/ عصمكم الله من الزلل
ح٢ / آمنكم من الفتن
ح٣ / طهّركم من الدنس
ح٤/ أذهب عنكم الرجس
ح٥/ طهركم تطهيرًا

ن١/ فعظمتم جلاله
ن٢/ أكبرتم شأنه
ن٣مجّدتم كرمه
ن٤/ أدمتم ذكره
ن٥/ وكّدتم ميثاقه
ن٦أحكمتم عقد طاعته

فالذي يلحظ على هذه المتوالية القولية أنّها مؤلفة من مجموعة من الملفوظات قد مثّلت الحجج في هذا الخطاب (عصمكم الله،آمنكم، طهركم...) (الصدوق،١٣٩٠هـ،ج ٢: ٣٧١)، وقد ارتبطت جميعها برابط حجاجيّ واحد وهو (الواو) الذي قام بوظيفة الجمع بينها وجعلِها في حالة تساندٍ حجاجيّ وتوجيهها للنتيجة نفسها، أما الملفوظات (فعظمتم جلاله، أكبرتم شأنه...) فهي تمثّل النتائج لتلك الحجج، وقد اضطلعت «الفاء» بوظيفة الرابط الحجاجيّ بين ملفوظات الحجج وملفوظات النتائج؛ لتضمنها معنى السببية؛ إذ المعنى أنّه إزاء نعمة الله وفضله في عصمتكم وأمانكم وتطهيركم أنكم عظمتم جلاله وأكبرتكم شأنه...إلخ، علمًا أنّ الذي يلحظ على النتيجة أنها لم تكن مفردة، بل قد كانت مجموعة من الملفوظات كلّها تصلح لأن تكون نتائج، وهي ظاهرة ليست مألوفة في سياقات التأليف الحجاجي؛ إذ الغالب أنّ الحجج تتعدد والنتيجة تنفرد، بيد أنّ هذا التعدد أو الكثرة في النتائج ربما يُلمح إلى شدة تعظيم النعم والمنن الإلهية من الأئمة الأطهار؛ ذلك بأنّ تلك النعم لا تتأتى لكل فرد، فالعصمة من الزلل، والأمان من الفتن، والتطهير من الدنس كلّها مِنن تخصّ فئة محصورة وليست لكل البشر، وقد أفاد وجود المعين الخطابي (كم) في الحجج هذا التخصيص، فلما أدركت تلك الذوات أنّ هذه النعم مخصوصة وليست عامّة قابلتها بشكر وتعظيم على المستويين القولي والفعلي؛ لذا كان من مظاهر هذا الشكر أن تتعدّد نتائجه لا أن تنحصر بنتيجة واحدة؛ نظرًا لتعدد تلك النعم وخصوصيتها الفريدة، ويسند هذا التأويل المعطيات اللغوية في الملفوظ؛ فالألفاظ المستعملة (عظّمتم، أكبرتم، مجّدتم...) كلّها تشير إلى الإجلال، والتعظيم، والتبجيل للجهة المتفضلة؛ إقرارًا بعظيم تلك المنن عليهم، وبهذا نخلص إلى أنّ ظاهرة تعدد النتائج في البنية الحجاجية قد سيقت ملاءمة لكثرة الحجج وتعددها التي مثلت النعم المخصوصة لتلك الفئة فحسب.

وجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام بإطلاقه لتلك الحجج قد أسس لمبدأ «العصمة» لدى الأئمة الأطهار بوصفها امتدادًا لعصمة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، والمقصد بها: التنزّه عن اقتراف الذنوب والمعاصي صغائرها

وكبائرها، وعن الخطأ والنسيان، مع عدم امتناعه عقلا على النبي أن يصدر عنه ذلك، وفضلا عن ذلك ينبغي أن يكون منزها حتى عما ينافي المروة، كالتبذل بين الناس كالضحك العالي، وعن أيّ عمل يُستهجن فعله عند العرف العام (المظفر،١٤٢٢هـ:٥٥)، وقد بدا ذلك واضحًا من الحجج التي ساقها الإمام: (عصمكم- آمنكم - أذهب عنكم- طهّركم...)؛ إذ يتضح من مدلولات تلك الألفاظ أنّها جميعها تنطوي على معنى التنزيه من كلّ سوء صغيرًا كان أم كبيرًا، وهو المضمون الذي يرتكز عليه مفهوم العصمة.

ونظير ما تقدم من مظاهر التساند الحجاجي بين الملفوظات، قوله عليه السلام: (والحق معكم وفيكم ومنكم وإليكم، وأنتم أهلُه ومعدنُه، وميراث النبوة عندكم، وإياب الخلق إليكم، وحسابهم عليكم، وفصل الخطاب عندكم،وآيات الله لديكم...) (الصدوق،١٣٩٠ه،ج ٢: ٣٧١)، فكلّ ملفوظ من هذه الملفوظات يمثل حجةً من الممكن أن تكون نتيجتُها الملفوظ المتقدم عليها، وهو قوله: (فالراغب عنكم مارق، واللازم لكم لاحق، والمقصر في حقكم زاهق) (الصدوق،١٣٩٠ه،ج٢: ٣٧١)، ويعضد ذلك أنّ تلك الحجج المتقدمة قد ارتبطت بهذه الملفوظات برابط العليّة أو السببية أي:

ح (الحق معكم وفيكم ومنكم وإليكم...)..... ن لذلك (الراغب عنكم مارق...)

ومن دقيق النسج اللغوي المقصود استعمال المتعلقات (معكم وفيكم ومنكم وإليكم)، التي زادت من قوة الحجة بفضل معناها في هذا الملفوظ، فالحق مصاحبٌ لهم، ومتأصل فيهم حتى كأنهم وعاؤه، ومبدؤه منهم، ومنتهاه إليهم، فقد شحنت هذه المتعلقات الملفوظ بطاقة عالية؛ نظرًا لأدائها وظيفة الإحاطة والشمول.

السلميّة الحجاجيّة للملفوظات:

من أهمّ المظاهر التي ميزت نظرية الحجاج اللغوي هو السلّم الحجاجي؛ ذلك أنّ أصحاب هذه النظرية وجدوا أنّ بعض الملفوظات الحجاجيّة لا تتمتع بالقوة نفسها في مساندة نتيجة معينة فقد تتفاضل فيما بينها متخذة سلّمية متدرجة لبلوغ تلك النتيجة، فلو قال أحدهم: زيدٌ قارئ للقرآن بل حافظ للقرآن لبيان (كفاءة زيد في إدارة المحفل)، فإنّ كلتا الحجتين تساند النتيجة نفسها وهي كفاءة زيد، لكنّ الواضح أنّ الحجة الثانية «حافظ للقرآن» ذات قوة حجاجية أعلى لدعم تلك النتيجة؛ ولذلك ساقها المتكلم بعد الرابط الحجاجيّ (بل)، وفي هذه الحال يكون الرابط الحجاجيّ مؤشرًا يوجّه المتلقي إلى أنّ الحجة التي تليه ترد بوصفها أقوى من سابقتها، ويسمى هذا النوع من التأليف الحجاجي بالتساند المقيّد (رشيد الراضي، ٢٠١٤م:٩٢)؛لأنّ الحجج مع أنها تساند النتيجة نفسها إلا أنها تتفاضل في ذلك.

أما في حال خلوّ الملفوظات من تلك المؤشرات الخطابية التي ترشد المتلقي لوجود علاقة تفاضلية بين الملفوظات فإن الحجج عندئذٍ تكون في حالة تساند مهمل (رشيد الراضي، ٢٠١٤م: ٩١)، بيد أنّ هذا الأمر

لا يؤخذ على إطلاقه؛ إذ لا تقتصر معرفة قوة الحجج على الروابط الحجاجيّة فحسب، فأحيانًا يفصح عن وجود تفاضلٍ بين الملفوظات الملفوظُ نفسه بما يتضمنه من صيغ ومعطيات لغوية يستنبط منها المتلقي ذلك، فلو نتأمل الملفوظات في المقطع السالف من الزيارة الذي سيق في معرض بيان العصمة وتعدد النعم:

ح ٤ طهركم تطهيرًا ن بلوغ مرحلة العصمة الإلهية

ح٣ أذهب عنكم الرجس

ح٢ أمنكم من الفتن

ح١ عصمكم الله من الزلل

فلا شكّ بأن هذه الحجج كلها تتجه لمساندة النتيجة المضمرة وهي « بلوغ مرحلة العصمة الإلهية» بيد أنّ الحجة الأخيرة التي تمثل الوصول إلى مرحلة التطهير «طهركم تطهيرًا» تعدّ أقوى مظاهر العصمة، ومن ثَمَّ تكون هذه الحجة هي الأقوى في مساندة النتيجة، وقد عضّد ذلك أمور منها:

١. التضعيف في الصيغة «يطهّركم» الدال على الكثرة والقوة.

٢. وجود المصدر «تطهيرًا» بوصفه صيغة اسمية دالة على الثبوت والقطع بالحصول (فاضل السامرائي، ٢٠٠٧م،ج ١: ١٢٨).

٣. الجمع بين الفعل ومصدره المؤكد له، فهو أسلوب توكيدي يؤيد قوة تلك الحجة وفضلها على سابقاتها.

المطلب الثاني: حجاجية الزمن في ملفوظات الزيارة:

إنّ الخطابات المؤثرة تولي «الزمن» اهتمامًا خاصا؛ نظرًا لإسهامه الفاعل في تجلية غايات الخطاب ومقاصده، ولا غروَ أن نجد ذلك واضحًا في ملفوظات الزيارة، ولعلّ التمايز الزمني في صياغة الملفوظات خير دليل للاستدلال على حجاجيّة الزمن فيها، وثمة مظهران بارزان من مظاهر الصياغة الزمنية للملفوظات:

أولًا: حجاجية الزمن المضارع (الحال والاستقبال):

لنتأمل الملفوظات الآتية: (إلى الله تدعون، وعليه تدلون، وبه تؤمنون، وله تسلمون، وبأمره تعملون، وإلى سبيله ترشدون، وبقوله تحكمون) (الصدوق،١٣٩٠هـ،ج ٢: ٣٧٢)، فاختيار زمنية الحال أو المستقبل المتمثلة بالأفعال المضارعة كان الأنسب لمقصدية الخطاب، فدعوة الأئمة الأطهار إلى الله تعالى، والدلالة عليه والعمل بأمره والإرشاد إلى سبيله، والحكم بقوله، لم ينتهِ زمانه، بل هو مواكب للحال ولِما بعده، وهذا ينطوي على فوائد حجاجية منها:

١. التدليل على أنّ الأئمة الأطهار هم السبيل الأقوم للرشد في زمنهم وبعد مماتهم، ومعنى ذلك أنهم حجج الهداية لمن كان في وقتهم ولمن أتى بعدهم لسلوك طريق الحق.

٢. أن التعبير بالمضارع يوحي -بحكم صيغته- إلى الاستمرار والتجدد، ويُفاد من ذلك أنّ تلك الصفات متجذرة فيهم ومستمرة، ومن جهة أخرى

هي متجددة فيمن سيرث الأئمة الأطهار، وفي ذلك استشراف مستقبلي لوجود الإمام المهدي عليه السلام

ومما يلحظ على الملفوظات السالفة هو تقدّم متعلقاتها عليها جميعًا، أي: (إلى الله، عليه، به، له، بأمره، بقوله) وهي بطبيعة الحال تعزز من ارتباط تلك الذوات بالذات المقدسة، فضلا عن أنّ هذا التقديم يوحي بالأهمية العظيمة للذات الإلهية لدى تلك النفوس الطاهرة بوصفه الغاية الأساس عندهم في القول والفعل.

ونظير ما تقدم من استعمال المضارع ذي الطاقة الحجاجية العالية قوله عليه السلام: (بكم يختم، وبكم ينزل الغيث، وبكم يمسك السماء أن تقع على الأرض)، (الصدوق،١٣٩٠هـ، ج٢: ٣٧٢)، فاستعمل المستقبل لفعل الختام (يختم) طالما أنّ الختام لم يحِن أوانه بعدُ لارتباطه بظهور الإمام المنتظر، وكذا إنزال غيث الرحمة، وإمساك السماء من أن تقع عقابًا أو عذابا لأهل الأرض على شرّ أفعالهم، فهذه الأفعال صيغت بما يتلاءم والقصد الحجاجي للخطاب، فعليّةُ إنـزال الرحمة، وحجب العقاب لم يقتصر على زمن الوجود الفعلي للرسول الأكرم وذريته عليهم السلام، بل هو ممتدٌّ ومستمرّ زمنًا وصولًا إلى أمر الختام بهم حين يأذن الله سبحانه لذلك، ومن لطيف الاستعمال الزمني الدقيق في هذا الملفوظ قوله: (بكم فتح الله وبكم يختم) فلما كان الفتح بيد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن خَلَفَه من الأئمة الأطهار جاء على هيأة الماضي، بيد أنّ الختام لهذا الأمر الرسالي لّما لم يكن واقعًا بعدُ صِيغَ على هيأة المضارع؛ إيذانًا بالفارق بين المقامين.

ولو يعقد القارئ موازنة بين هذا الملفوظ وبين ما سبقه يلحظ تقاربًا من حيث الصياغة الذي سيوثر بطبيعة الحال في معنى الملفوظ، ففي الملفوظ السالف ثمة تقديم للمتعلقات المرتبطة بالذات المقدسة على أفعالها (إلى الله، وعليه، بهِ...) فضلًا عن التنوع فيها، وكذا في هذا الملفوظ يتقدم المتعلق على الأفعال (بكم فتح، وبكم يختم، وبكم ينزل...)، بيد أنّ المتعلق هنا واحد متكرّر وهو (بكم)، وهو استعمال مقصود؛ ليبين أنّ مركزية هذه الحجج تتمثل فيهم فحسب، وهو يحمل إشارة إلى أنّ سببية الفيوضات الإلهية واستمراها على الخلق منحصرة ومرتبطة بوجود ذوات الأئمة الأطهار الذين هم امتداد فعليّ للرسالة المحمديّة، على أنّ هذا التكرار قد حمل قيمة إشهارية عالية؛ إذ أدى وظيفة المثير الخطابي الذي ينبِّه المتلقي ويفعّل عنده الاستجابة لمضمون الخطاب (عبد الفتاح أحمد يوسف،٢٠١٠م: ١٢٢)، وبنـاءً على معنى السببية فستكون هذه الملفوظات بمنزلة حجج تنبئ بنتيجة مضمرة مفادها الإقرار بحقهم والالتزام باتّباعهم.

ولعلّ فكرة التأسيس للظهور تتجلى بصورة أوضح في الملفوظ الآتي: (حتى يحييَ الله بكم دينه، ويردّكم في أيامه، ويظهركم لعدله، ويمكنكم في أرضه) (الصدوق،١٣٩٠هـ،ج ٢: ٣٧٣)، فالصياغة الزمنية الدالة على الاستقبال واضحة في هذا المقام، وهي متناسبةٌ مع مضمون الانتظار لهذه الدولة التي لم تقم بعد، وفضلًا عن ذلك فإنّ الملفوظ (يردّكم في

أيامه، ويظهركم لعدله...) يؤسس لأمرٍ آخر وهو حدوث «الرجعة» وهو مفهوم قارّ لدى مذهب أهل البيت عليهم السلام يختص برجوع فئة ممن محضوا الإيمان محضًا، أو محضوا الكفر محضًا إلى الحياة مرة أخرى (المفيد،١٩٩٣م: ٩٠)، وهو الزمن الذي تتحقق فيه العدالة الإلهية في الدنيا قبل الآخرة، وما يعضد اختصاص زمنية هذا الملفوظ بالرجعة قوله: (يردّكم في أيامه..)، فالردّ يعني الرجوع، وكذا (يمكنكم في أرضهِ)؛ إذ دلّ وجود «أرضه» على رجوع الدنيا وليس الآخرة، وقد ورد لفظ (الرجعة) صريحًا في ملفوظ آخر من الزيارة وهو: (جعلني ممن يقتصّ آثاركم، ويسلك سبيلكم، ويهتدي بهداكم، ويكرّ في رجعتكم، ويُملَّك في دولتكم...) (الصدوق،١٣٩٠هـ،ج ٢: ٣٧٣)، فالكرّة عودة شيء مرة أخرى بعد الأولى (ابن منظور،١٤١٤هـ،ج ٥: ١٣٥) (كرر)، والرجعة قُصد بها العودة إلى دار الدنيا؛ ولذلك وُسمت المعيّن الخطابي (كم) لتخصيصها، ثمّ تتمة الخطاب بـ (ويملّك في دولتكم)؛ إذ لا معنى لقيام الدولة في الآخرة، وقد ذكرت الرجعة صريحًا في مقام آخر مرافقًا الإقرار بالشهادة، (أُشهدُ الله وأُشهدكم أنّي... مؤمن بإيابكم، مصدّقٌ برجعتكم، منتظرٌ لأمركم، مرتقبٌ لدولتكم)، (الصدوق،١٣٩٠هـ،ج ٢: ٣٧٣)، فالإياب الذي ينبغي أن يؤمن به من يسلك سبيل أهل البيت المقصود به «الرجعة»؛ ولذلك أُردفَ بقوله: مصدّق برجعتكم.

ومما يلحظ على هذا الملفوظ هو اختلافه عن سابقَيه في الصياغة الزمنية؛ إذ صيغ ما قبله بهيأة المستقبل التي تناسب مضمونَي (الظهور، الرجعة)، بيد أنّ هذا الملفوظ قد استعمل فيه اسم الفاعل، وهو عدول مقصود اقتضاه السياق الخطابي؛ ذلك بأنّ هذا الملفوظ قد ورد في معرض إنجازية الإقرار بالشهادة، والإقرار-مفهومًا- عهدٌ يُلزم الإنسان نفسه بإيفائه وأدائه، ولما كان الأمر كذلك وُسم الملفوظ حجاجيًّا بالصياغة الاسمية لشحنه بسمة الثبات والقوة.

ثانيًا: حجاجيّة الزمن الماضي

مثلما أسهمت صياغة ملفوظات الخطاب بهيأة زمن الحال، أو المستقبل في تكوين المقاصد الحجاجية للزيارة، فإنّ الزمن الماضي قد يُختار لأداء غايات مهمة أيضا، كقوله عليه السلام: (سعدَ من ولاكم، وهلك مَن عاداكم، وخابَ مَن جحدكم، وضلَّ مَن فارقكم، وفاز من تمسّك بكم وأمِن من لجأ إليكم...) (الصدوق،١٣٩٠هـ،ج ٢:٣٧٢)، فقد يعرض في نفس القارئ المتأمل استفسار عن علة هذه المغايرة الزمنية، فهل السعادة أو الفوز مختصّ بمن كان في زمن الأئمة الطاهرين ولا تخص الموالين لهم في حاضرنا، أو من سيأتي بعد ذلك من الخلق، وهل الخيبة والضلال مقتصرة على من مضى ممن جحد تلك الولاية ؟.

إنّ أيّ ذي لبّ يستطيع أن يجيب بالنفي عن هذا السؤال حتى وإن خفيت عنه العلة، وللإجابة عن علة ذلك نقول: إنَّ التعبير بهذه الصياغة جاء- والله أعلم-

للتدليل على الأمر المفروغ منه، وكأنّه حدثٌ واقع لا شكّ فيه ماضيًا وحاضرًا ومستقبلا، وهو أمر كثير الورود في سياقات الخطاب القرآني حين يريد التعبير عن الأمور القطعية، كقوله تعالى: (حُرّمت عليكم أمهاتكم)، فلا غروَ أن حدود زمن التحريم لم يقتصر على الماضي فحسب، وكذا الأمر في هذا المقام، فما دام طريق الولاية خطّ متصلٌ بالرسالة المحمديّة وامتداد لها فمن باب أولى أن تشتمل على الأزمان كلها، ومن ثَمَّ يكون التعبير بالماضي في هذا الملفوظ ذا طاقةٍ حجاجية عالية، وجهت المتلقي إلى أهمية الترابط والتلازم الزمني بين التصديق الرساليّ والإيمان بالولاية، ونظيره قوله: (آمنت بكم وتوليت أولكم بما توليت به آخركم) (الصدوق،١٣٩٠هـ،ج ٢: ٣٧٣)، فالإيمان بهم وتولّيهم ينبغي أن يكون حقيقة ثابتة ملازمة لوجودهم، لا تغيير فيها ولا مِراء؛ لذا صيغت بالماضي لتحقيق هذا القصد؛ إذ هي بمنزلة الإقرار والتعهّد، فضلًا عن أنّ صياغتها هذه وسمتْها بعدم الزعزعة والشكّ بوصفها شيئا متحقّقًا.

ولتأكيد قصدية الاستعمال الزمني، وتأكيد أهميته في خطاب الزيارة نجد أنّ الإمام قد قرّر ذلك بملفوظ صريح للفت المتلقي إلى أهمية هذا الأمر فقال: (أشهدُ أنّ هـذا سابقٌ لكم فيما مضى وجـارٍ لكم فيما بقي) (الصدوق،١٣٩٠هـ،ج٢:٣٧٢)، و (هذا) إشارة لكلّ ما سبق ذكره من النعوت والصفات المنزهة لأئمة أهل البيت والخاصة بهم حصرًا، والمعنى أنّ كلّ ما ذُكر شامل للأئمة جميعًا فيما مضى من الزمان، وسارٍ إلى ما بقي منه وفي ذلك إشارة إلى زمن الحجة المنتظر «عجل الله فرجه الشريف».

المطلب الثالث: حجاجيّة الملفوظ الشرطي:

يعدّ الملفوظ الشرطي أحد التأليفات الخطابية ذات الطاقة الحجاجية العالية؛ نظرًا لبنيته اللغوية الاستلزامية التي تقتضي استلزام الجواب «النتيجة» للشرط، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنّ الملفوظ الشرطي حينما يساند نتيجة معينة، يفهم منه أن نفي ذلك الملفوظ سيساند النتيجة المخالفة أو المعاكسة طبقًا لقانون العكس الحجاجيّ (رشيد الـــراضي،٢٠١٤م:١٢٧)، بمعنى إن قلت: إنْ حضر زيد فسأحضر، فيفهم منه بحسب هذا القانون: إنّ عدم حضور زيد سيسند عدم حضور المتكلم حتى وإن لم يتلفظ بذلك، وهو ما سيتم توضيحه بالآتي: (من والاكم فقد والى الله، ومن عاداكم فقد عادى الله، ومن أحبكم فقد أحبّ الله، ومن أبغضكم فقد أبغض الله...) (الصدوق ١٣٩٠هـ،ج٢:٣٧٢)، وفي مقطع آخر من الزيارة: (من أتاكم نجا ومن لم يأتكم هلك) (الصدوق، ١٣٩٠هـ، ج٢:٣٧٢)، ففي هذين المقطعين صياغتان شرطيتان؛ أمّا المقطع الأول جمع بين الشيء وضده (والى- عادى) و (أحبّ- أبغض)، أما المقطع الثاني فقد جمع بين النقيضين (أتاكم - لم يأتكم)، فضلًا عن الضدين (نجا- هلك).

إنّ الملفوظ (من والاكم) بمنزلة الحجة نتيجتها بعد الرابط «الفاء» وهي (قد والى الله)، وبحسب قانون العكس الحجاجي فإنّ عكس الحجة يدعم النتيجة المعاكسة، أي يفهم منه أنّه (من لم يوالِكم) فالنتيجة (لم يوالِ الله)، وهذه النتيجة وإن لم يصرّح بها الإمام إلا

أنّه صاغها بصياغة أخرى وهي بالضد أو العكس (من عاداكم) (فقد عادى الله)، ولعلّ التصريح بالملفوظ الشرطي المعاكس – سواء أكان الضدّ أم النقيض– ينطوي –والله أعلم –على غايتين:

١. أنّ التصريح بالشيء مع كونه مفهومًا يستدعي توكيده وتقريره في النفس بما لا يقبل الشكّ، وهو ما يجعله أكثر إلزامًا للمتلقي، وهذا الأمر منطبق أيضًا على الملفوظ الشرطي في المقطع الثاني، (من أتاكم نجا)، فبناءً على قانون العكس الحجاجي يفهم أنه (من لم يأتِكم هلك)، إلا أنّ هذا الملفوظ المعاكس قد صرّح به؛ تقريرًا له في نفس المتلقي.

٢. الأمر الآخر هو أنّ في صياغة الملفوظ العكسي بطريقة الضد (من عاداكم فقد عادى الله)، فإنّه يفهم منه النقيض وزيادة، ومعنى ذلك أنّه عندما يقول: (من عاداكم فقد عادى الله) فإنه يفهم منه النقيض وهو: (من لم يوالِكم فلم يوالِ الله) استنادًا إلى أنّ نصبَ العداء نِتاجُ عدم الولاية حتمًا، ويفهم منه أيضًا زيادة على ما تقدم المعنى الخاص بالملفوظ المؤلف من مكوناته اللغوية الصريحة، وهو أنّ نصب العداء بشتى أشكاله هو عداء لله تعالى.

ونجد صياغة أخرى للملفوظ الشرطي في مقطع آخر من الزيارة: (من اتّبعكُم فالجنّة مأواه، ومَن خالفكم فالنار مثواه، ومَن جحدكم كافر ومَن خالفكم مشرك، ومَن ردّ عليكم فهو في أسفل دَركٍ من الجحيم) (الصدوق، ١٣٩٠هـ، ج٢:٣٧٢)، فالحجج (من اتبعكم – من خالفكم – من ردّ عليكم) كانت نتيجتها المصرّح بها مصوغة بنسق التركيب الاسمي وهي: (الجنةُ مأواه – النار مثواه– هو في أسفل درك)؛ إيذانًا بثبوت هذا الأمر وحتميته حين تطبيق الحجة، أما الحجتان (من جحدكم – من خالفكم) فنتيجتهما (كافر– ومشرك)، وهما اسما فاعل، وقد عدلَ به عن استعمال الفعل أي (كفر وأشرك) إلى الاسم؛ تنبيهًا على لزوم وثبوت تلك الصفة لمن يجحد أهل البيت أو يخالفهم، الأمر الذي يؤكد خطورة الإقدام على هذا الفعل؛ وقد كان لهذا التأليف القولي أثره في الإفصاح عن تلك العاقبة الوخيمة، فقد كان المقابل للملفوظ الشرطي المرغّب بالاتباع الواحد، أربعة من الملفوظات الشرطية المحذّرة من الإنكار والمخالفة، مما جعل سمة التحذير هي المهيمنة على هذا التأليف الحجاجيّ.

المطلب الرابع: حجاجيّة الشاهد القرآني:

لا شكّ في أنّ تدعيم الحجة بالوسائل ذات الطاقة الحجاجية العالية يجعلها أكثر تأثيرًا في المخاطَب، ومن ثمّ يزداد تفاعله معها فكرًا وسلوكًا، ومن جملة تلك الحجج المؤثرة ما يسمى بحجة «الاستشهاد» وفائدة هذه الحجة ترسيخ الأفكار في ذهن المخاطَب (بلقاسم دفّة،٢٠١٤م،ع١٠:٣٠٣)، وجعلها أكثر مقبولية عنده بما يدفع نكرانها، أو تكذيبها، وخير دليل على ذلك الاستشهاد بالنصوص القرآنية أو الأحاديث، وفي ما يأتي بيان لبعض تلك المواضع في ملفوظات الزيارة الجامعة، التي كانت على نوعين؛ فتارة يكون الاقتباس

على هيأة ملفوظ كامل (نص مباشر كلّي)، وأخرى يكون مباشرًا جزئيا بأن يقتصر على عبارة أو ألفاظ تحيل إلى مواضع مشابهة في الكتاب الكريم:

أ.الاقتباس المباشر الكلي ومثاله في قوله عليه السلام: (وعباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) (الصدوق، ١٣٩٠هـ،ج٢: ٣٧١)، فهذا الملفوظ كاملًا مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء: الآيتان ٢٦- ٢٧)؛ إذ كان من أهم مصاديق العباد المكرمين الأئمةُ المعصومون (القمي علي بن إبراهيم،١٣٨٧هـ،ج ٢:٦٩).

ومن ذلك أيضًا قوله عليه السلام في مقطع الإقرار بالشهادة التي هي صورة الإسلام الحق: (كَمَا شَهِدَ اللهُ لِنَفْسِهِ وَشَهِدَتْ لَهُ مَلَائِكَتُهُ وَأُولُو الْعِلْمِ مِنْ خَلْقِهِ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ الْمُنْتَجَبُ وَرَسُولُهُ الْمُرْتَضَى أَرْسَلَهُ بِالْهُدىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (الصدوق، ١٣٩٠هـ،ج٢: ٣٧١)، فهذا الملفوظ يستحضر نصين كريمين هما قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨)، وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف:٩)، فجعل الإقرار بالشهادة مضمنًا لاقتباس قرآني ليجعل حجيّتها أقوى وأوكد في توجيه المتلقي إلى جوهر الإسلام متمثلًا في بيان صريح لأصلين من أصول الدين وهما التوحيد والنبوة فضلًا عن الإمامة الموجودة ضمنًا في هذا الملفوظ بدلالة ذيل الآية (ليظهره على الدين كلّه) فالإسلام لم يظهر بعدُ على سائر الأديان، فلابدّ من إعلائه على جميع الأديان، ولن يكون ذلك إلّا على يد من يكون امتدادًا للرسالة المحمديّة، ويؤيد هذا الرأي ما رُوي عن أبي جعفر عليه السلام: (إنّ ذلك يكون عند خروج المهدي من آل محمد فلا يبقى أحد إلا أقرّ بمحمد) (الطبرسي، ١٣٣٩هـ،ج ٩: ١٢٧).

ونظير ما تقدم قوله عليه السلام: (وَطَهَّرَكُمْ مِنَ الدَّنَسِ وَأَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَطَهَّرَكُمْ تَطْهِيراً) (الصدوق، ١٣٩٠هـ،ج٢: ٣٧٢)، فهو مقتبس من قوله سبحانه في الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب:٣٣) التي اختصت بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام (الطبرسي،١٣٣٩هـ،ج ٨: ٣٥٦-٣٥٧)، وفي ذلك تأكيد لاختصاص أهل البيت بمن كانوا في بيت عليّ وفاطمة عليهما السلام ومن لحقهم من ذريتهم، وأمّا قوله: (جعلكم في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه...) (الصدوق، ١٣٩٠هـ،ج٢: ٣٧٢)، فهو اقتباس صريح ومباشر من قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (النور: ٣٦)، و«البيوت» كما ذكر القميّ في تفسيره لهذه الآية عن أبي جعفر عليه السلام هي بيوت الأنبياء وبيت عليّ عليه السلام منها (القمي،١٣٨٧ه،ج ٢: ١٠٤)، وجعْلُ بيت أمير المؤمنين عليه السلام جزءًا منها يعني أنّ الأئمةَ المعصومين داخلون ضمنًا في هذا الحكم؛ ولذلك جاء الخطاب في

ملفوظ الزيارة مقترنًا بالمعين الخطابي المشير إلى الجمع (جعلكم في بيوت...)؛ تنبيهًا للمتلقي على حقيقة هذا الامتداد، وشمولية هذا الحكم.

ب. الاقتباس المباشر (الجزئي)، في قوله: (السلام على الأئمة الدعاة والقادة الهداة... وأهل الذكر وأولي الأمر وبقية الله...) (الصدوق، ١٣٩٠هـ،ج٢:٣٧٢)، فالعبارات الأخيرة الثلاث كلّ واحدة منها تعدّ اقتباسًا جزئيًا من آية في القرآن الكريم؛ فالأولى، تتناصّ مع قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: من الآية٤٣)، وقد ذكر بعض المفسرين في رواية عن جابر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: نحن أهل الذكر (الطبري،٢٠٠٠، ١٧/ ٢٠٩، والقمي،١٣٨٧هـ، ٢/ ٦٨، والثعلبي، ٦/ ٢٧٠)، وهذا التفسير هو الذي أكده الإمام الهادي عليه السلام باستعماله لعبارة: «أهل الذكر» في السلام على الأئمة؛ تنبيهًا على أنّ علمهم هو الامتداد الحقّ لعلم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم؛ لذلك فهم المصداق الأمثل لأمر الكتاب الكريم بسؤالهم من دون سواهم.

وأمّا العبارة الثانية (أولي الأمر) فهي مقتبسة من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء: من الآية ٥٩)، وهو اقتباس مقصود؛ نظرًا لارتباط هذه الآية بالعصمة التي هي محور أساس في خطابية هذه الزيارة، وقد روي عن الإمامينِ الباقر والصادق «عليهما السلام» أنّ أولي الأمر هم الأئمة من آل محمدٍ أوجب الله تعالى طاعتهم وقرنها بطاعته وطاعة رسوله؛ فلا يتأتى إلّا لمن ثبتت عصمته، وهو أمر غير ثابت للحكماء ولا العلماء؛ إذ من المحال أن يأمر الله بطاعة من يصدر عنه اختلاف بين قوله وفعله، أو من يخالف ظاهره باطنه (الطبرسي،١٣٣٩هـ، ٣/ ٦٤).

وأمّا الثالثة- أي بقية الله- فهي تشير إلى قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (هود: من الآية ٨٦)، فـ (البقية) بحسب رأي جملة من المفسرين هو الربح الحلال الباقي، وقيل: طاعة الله (الطبري،٢٠٠٠م، ١٥/ ٤٤٦، والزمخشري، ١٤٠٧هـ،٢/ ٤١٨، والطبرسي،١٣٣٩، ٥/ ١٨٧)، بيد أنّ اشتراط الإيمان في ختام النص الكريم يجعل الرأي القائل بالربح الحلال محل نظر؛ ذلك بأنّ مما لا يدفع صحته عاقل هو أنّ الربح الباقي هو خير للمؤمن ولغيره، وبهذا ستنتفي فائدة هذا الاشتراط، أمّا الرأي الأكثر وجاهة وأليق بنسج النص هو أنّ البقية ليست مادية بل معنوية، وحملها على طاعة الله أولى، ولا غرو أن أفضل المصاديق التي تتجلى فيها طاعة الله هم الأئمة الأطهار، وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سُئل عن كيفية السلام على الإمام المنتظر «عجل الله فرجه» فقال: يقال له: (السلام عليك يا بقية الله...)، (العياشي، ١٤٢١هـ،١/ ٢٧٦). وتأكيدًا لهذه الحقيقة استعملها الإمام الهادي عليه السلام في السلام على الأئمة الأطهار في الزيارة.

المطلب الخامس: حجاجيّة الملفوظ المنفي

يعدّ النفي - ولاسيّما بضميمة أداة الاستثناء-عاملًا حجاجيًا، والمقصود بـ (العامل) هو صُريفة إذا دخلت على ملفوظ فإنها تغير طاقته الحجاجية، فالعامل

الحجاجي لا يربط بين الحجة والنتيجة أو بين الحجج نفسها -كما في الروابط- وإنما يدخل على القول نفسه تاركًا أثرًا حجاجيًا فيه (رشيد الراضي، ٢٠١٤م، ١٠١-١٠٢، والعزاوي،٢٠٠٦م، ٢٧، وشكري المبخوت،٢٠٠٦م، ٢٠٤-٢٠٥)، علمًا أنّ النفي تارة يكون مرادًا لمعناه فحسب وهو النقض، وأخرى يكون متسقًا مع أدوات الاستثناء فيكون قصرًا، ومن الملفوظات التي وردت منفية في الزيارة: (فبلغ الله بكم أشرف محلّ المكرمين...حيث لا يلحقه لاحق، ولا يفوقه فائق، ولا يسبقه سابق، ولا يطمع في إدراكه طامع حتى لا يبقى ملك مقرب ولا نبيّ مرسل ولا صديق...إلا عرّفهم جلالة أمركم وعظم خطركم...) (الصدوق، ١٣٩٠هـ، ج٢٧٢:٢-٢٧٣).

إنّ الشطر الأول من الملفوظ، أي قوله: (لا يلحقه لاحق ولا يفوقه فائق...) هو بمنزلة النتيجة المترتبة على ما سبقها من حجج (بلغ الله بكم أشرف محل، وأعلى منازل...) وهو ملفوظ منفي بـ«لا» ووجود هذا العامل اللغوي في الملفوظ قد شحنه حجاجيًّا بما يتناسب وغاية المتكلم؛ ذلك أنّ نفي المضارع بهذه الأداة يحمل دلالة أوسع من نظيراتها في النفي، فهو قد يشتمل على الاستقبال أو الاستمرار أو غير مقيد بزمن على رأي آخر (فاضل السامرائي،٢٠٠٧م،ج ٤:١٧٦)، وبالتأمل في السياقين اللغوي والتداولي للملفوظ نجد أنّ المتكلم يتحدث عن المنازل، والمحالّ التي ستكون لأهل البيت في الآخرة، بيد أنّ تلك المكانة الرفيعة لأهل البيت عليهم السلام ثابتة لهم في الدارين الدنيا والآخرة، ولعلّ اقتصار دلالة الملفوظ على المستقبل فيه شيء من القصور، وتأسيسًا عليه فإنّ حمل الملفوظ على دلالة الاستمرار أو جعله مطلقًا في الزمن أوفق لغاية الخطاب التي تتبنى بيان مكانة الأئمة التي لا يدانيها أحد، علمًا أنّ وجود بعض المعطيات اللغوية أسهمت في قوة هذا الملفوظ أيضا، من ذلك استعمال النكرات لا المعارف (لاحق- فائق- سابق- طامع) وهذا الاستعمال يجعل الملفوظ أشمل لدلالة العموم؛ فتلك المنازل لا تنال من أي لاحق أو أي سابق أو أي فائق مهما علت درجته ومكانته، أما الغاية الكبرى من استعمال العامل الحجاجي النفي وعدم الاكتفاء بالإثبات هو أنّ نفي الملفوظ يجعل المخاطب يستنبط ملفوظين وليس واحدًا، فثمة الملفوظ الأول المضمر وهو إثبات الشيء قبل نفيه من جهة متكلم ما، والثاني الصريح وهو نفيه، وبناءً عليه تكون طاقة النفي الحجاجية أعلى من طاقة استعمال الإثبات وحده في مثل هذا المقام؛ لأنّه سيكون بمنزلة ردٍ على ملفوظ مثبت مضمر قد يتبادر إلى ذهن المخاطب الآني أو الكوني، فدفعه المتكلم باستعمال هذا العامل الحجاجيّ، وتوضيح ذلك:

الملفوظ المضمر: يلحقه لاحق/ الملفوظ المنفي الصريح: لا يلحقه لاحق

الملفوظ المضمر: يفوقه فائق... / الملفوظ المنفي الصريح: لا يفوقه فائق...

أمّا الجزء الثاني من الملفوظ فهو ليس نفيًا خالصًا، بل ملفوظ (قصر) متمّم حجاجيًا لملفوظ النفي السالف: (حتى لا يبقى ملك مقرب ولا نبيّ مرسل ولا صديق ولا شهيد ولا عالم ولا جاهل ولا دنيّ ولا فاضل ولا مؤمن صالح ولا فاجر طالح ولا جبّار عنيد ولا شيطان مريد ولا خلق فيما بين ذلك شهيد إلّا عرّفهم جلالة أمركم وعظم خطركم...) (الصدوق، ١٣٩٠هـ،ج ٢: ٢٧٢-٢٧٣)، فالعامل الحجاجيّ المتمثل في القصر (لا..إلّا) ذو قيمة حجاجية عالية ولاسيّما إذا كان تاليًا للنفي، وتلك القيمة متأتّية من جانبين:

الأول: أنّ القصر يحجب عن المتلقي المحتملات الذهنية للنتيجة أو يقلصها ويوجهه صوب نتيجة محددة يقصدها المتكلم (العزاوي، ٢٠٠٦م: ٢٧).

الثاني: أنّ «القصر» إذا أعقب «النفي» فإنّ فائدته الحجاجية تـزداد في تعضيد قـوة الحجة المنفية؛ لأنه سيمثل ردّا آخر ودحضًا في الوقت نفسه لصوت متكلم مضمر قد يزعم أنّ ثمة مكانة مشابهة أو قريبة لمكانة أهل البيت عليهم السلام؛ لأنّ النفي بالأساس قائم على مفهوم السلب، أو النقض، أما الدحض فهو قائم على حركة حجاجية تتمثل في إبداء الحجة على أنّ هذا الرأي مغلوطٌ (باتريك شـارودو،٢٠٠٩م: ١٢)، وقد اضطلع بهذه الوظيفة الحجاجية ملفوظ القصر بعد ملفوظ النفي.

ونظير ذلـك قوله عليه السلام في خاتمة الـزيـارة: (إنّ بيني وبين الله تعالى ذنوبًا لا يأتي عليها إلا رضاكم) (الـصـدوق،١٣٩٠هـ، ج٢: ٢٧٣)، فقد استعمل العامل الحجاجيّ القصر؛ لأنّـه الأوفـق للقصد من الخطاب، فلما كان الإيمان بولاية أهل البيت والإقرار بهم هو المعيار الوحيد لقبول الأعـمال وردّهـا، وهو وسيلة الشفاعة الحقّة بين العبد وربّـه؛ لذا كان من الأولى استعمال أسلوب حجاجي يختصر على المتلقي التفكير في النتائج الكثيرة التي قد يحتملها ذهنه، ويوجهه مباشرة إلى نتيجة محددة كي يتنبّه على أهمية هذه الجزئية في خطاب المتكلم.

المطلب السادس: الخصيصة التقويميّة للملفوظات:

إنّ بعض الملفوظات الحجاجية تمتلك خصيصة تقويميّة، وهي متأتّية من اشتمالها على بعض المفردات أو الألفاظ التي تمنح الملفوظ – بفضل معطاها اللغوي أو صيغتها – شحنة تقويمية إيجابية أو سلبية، ومعنى التقويم هو الحكم القيمي على شيء بناءً على معايير، أو مبادئ خاضعة لمقبولية العقل أو التواضع الاجتماعي، وهو نوعان؛ منه ما يكون أخلاقيا وهو المستند إلى مفهومي الحسن والقبح، والآخـر غير أخلاقيّ المتعلق بإبداء حكم قيمي على الأشياء من جهة المقادير أو المسافات أو الأحجام... (عبد الله صولة،٢٠٠٧م: ١٢٩-١٣٠)، ويمثل النوع الأول أي «التقويم الأخلاقي» الأكثر بروزًا في الخطابات المؤثرة الأمر الذي سيترتب عليه توجيه المتلقي لاتخاذ موقفٍ تجاه ذلك الملفوظ، وتأسيسًا على ذلك لن يكون الملفوظ حاملًا لقيمته الإخبارية فحسب بل سيكون ملفوظًا حجاجيًّا بامتياز، ومن أمثلة ذلك قوله عليه السلام: (فالراغبُ عنكم مارق، واللّازم لكم لاحق،

والمقصّر في حقكم زاهق) (الصدوق،١٣٩٠هـ،ج ٢: ٢٧٢)، فالمارق صفة تقويمية لمن رغب عن أهل البيت، وهي ذات شحنة سلبية، فالمروق في اللغة خروج من شيء من غير مكانه، ومـرقَ من الدين إذا خرج منه وتجـاوزه؛ ولذلك لُقب الخـوارج بالمارقين لخروجهم عن الدين القويم (ابن منظور: ٢٠١٤هـ، ج١٠:٣٤١ (مرق)، وكذا لفظ «زاهق»، فهو ذو تقويم سلبي؛لأنّ الزهوق بطلان الشيء، أو هلاكه أو اضمحلاله وذهابه (ابـن مـنظـور،٢٠١٤م،ج: ١٤٧ (زهـق)، أمّـا الصفة «لاحق» فقد حملت شحنة إيجابية؛ لأنها تكيّفت مع سياق ملفوظ أكسبها ذلك، فهي بمعنى الإدراك والاتباع (ابن منظور، ٢٠١٤م،ج١٠: ٣٢٧ (لحق)، وقد وردت خبرًا عن (اللازم لكم...) مما جعل ملفوظها ذا تقويم إيجابيّ، فاللازم لأهل البيت تابع لهم إيمانًا وعقيدة، واستنادًا إلى تلك الصفات التقويمية فإنّ الملفوظات قد اكتست صبغة حجاجية موجّهة لنتيجة مضمرة يمكن تمثيلها بالآتي:

ح/ الراغب عنكم مـارق..... ن إذن لا ترغبوا عنهم

ح/ المقصر عنكم زاهــق..... ن إذن لا تقصروا في حقهم

ح/ اللازم لكم لاحــق..... ن إذن الزموهم.

ومما يلحظ على بعض ملفوظات الزيارة التي تشتمل على الصفات التقويمية هو أنّها نسجت بطريقة المتقابلات، وتوضيح ذلـك أنّـه قـد يـرد مقطع حجاجي تشتمل ملفوظاته على مجموعة صفات كلّها ذات تقويم إيجابي، ثمّ يقابله مقطع آخر مشحون بألفاظ كلّها ذات تقويم سلبيّ، من ذلك قولهعليه السلام: (أشهدُ أنكم الأئمة الراشدون المهديون المعصومون المكرمون المقربون المتقون الصادقون المصطفون المطيعون لله القوامون بأمره العاملون بإرادته الفائزون بكرامته) (الصدوق،١٣٩٠هـ،ج ٢:٣٧١)، فالصفات في هذا الملفوظ تمتلك تقويمًا أخلاقيا، وهو تقويم إيجابي مادامت تُشعر بالمدح، على أنّ هذا الحكم القيمي هو الذي سيسهم بالتوجيه الحجاجيّ للمتلقي؛ ذلك بأنّ وظيفة الاستحسان أو الاستقباح لشيء ما-من جهة المتلقي- تتجلى في إثارته بوساطة تحسين الأشياء أو تقبيحها في نظره مما يترتب عليه التأثير فيه عاطفيًا من خلال ترغيبه أو تنفيره من بعض الأمور ومن ثَمّ حثّه على اتّخاذ موقف معين إزاء ذلك الملفوظ (عبد الله صولة،٢٠٠٧م: ١٥١)، أي إنّ لذلك بعدًا انفعاليًا عاطفيًا،وأخلاقيًا عمليًا.

وفي مقابل الملفوظ الأول نجد ملفوظًا آخر يحمل تقويمًا مغايرًا متمثلًا في قوله: (بـرئـتُ إلى الله من أعدائكم...وحزبهم الظالمين لكم الجاحدين لحقكم والمارقين من ولايتكم والغاصبين لإرثكم الشاكين فيكم المنحرفين عنكم...) (الـصـدوق،١٣٩٠ه،ج ٢:٣٧٣)، فـ(الظالمين والجاحدين والمارقين والغاصبين والشاكين والمنحرفين) كلها صفات ذات تقويم أخلاقي سلبيّ؛ لذلك كانت النتيجة في بعدها التأثيريّ هي إعلان البراءة (برئتُ إلى الله) من الفئة التي اتسمت بتلك الصفات الممقوتة عقلًا وشرعًا.

وثمة ملفوظات تشتمل على صفات تقويمية تتخذ مظهرًا حجاجيًّا سلّميا كقوله: (بلغ الله بكم أشرف محل المكرمين، وأعلى منازل المكرمين، وأرفع درجات المرسلين)، فهذه الحجج شُحنت بطاقة عالية زادت من قوتها الحجاجيّة؛ ذلك بأنّ (أشرف -أعلى - أرفع) تستلزم ما تحتها أي: (شريف - عالي - رفيع)، ومن ثمّ فإنّ الملفوظ المتوافر على هذه الصفات التفاضلية سيكون في قمة السلم من جهة التأثير في المتلقي وتوجيهه إلى النتيجة المنشودة وهي (لا يلحقه لاحق...)، ونظير ذلك قوله: (أنتم الصراط الأقوم) (الصدوق،١٣٩٠ه، ٢/ ٣٧٢)، فصفة «الأقوم» صفة تفاضلية باعتبارها تستلزم وجود ما تحتها ترتيبًا، أي: (قويم - أقوم)، وفي هذه الحال فإنّ أهل البيت ليسوا سبيلًا مستقيمًا فحسب، بل هم أقْومُ سبيلٍ لمن اتبعهم، وسار على هديهم.

الخاتمة:

(١) تختلف الصياغة الحجاجية لملفوظات الزيارة عن باقي الخطابات الأخرى، فثمة ظاهرة جديدة متمثلة بتعدد النتائج الصريحة، فالحجج لم تتوجه صوب نتيجة واحدة، بل مجموعة من النتائج التي كانت بمنزلة مقابل دلالي لتعددية الحجج، وهو أمر اقتضته قصدية الخطاب.

(٢) إنّ الصياغة الزمنية كانت لها وظيفة حجاجية بارزة في توجيه المتلقي إلى قصد الخطاب، ولاسيّما التغير المفاجئ إلى زمن الحال أو الاستقبال مما يعضد ارتباط هذا الملفوظ حجاجيّا بالتأسيس للمستقبل الغائب المرتبط بالإمام المهديّ عليه السلام.

(٣) إنّ الشاهد القرآني كان له الحضور الحجاجيّ الفاعل والمؤثر من جهتين؛ الأولى قوة الحجة وتدعيمها عندما تكون حقيقة قرآنية، والأخرى تأكيد الترابط العلائقي بين المتن القرآني وخطاب الإمام فكرًا وعملًا وسلوكًا.

(٤) ثمة ترابط وثيق وتعالق حجاجيّ متينٌ بين ملفوظات الزيارة، فالنتيجة المترتبة على حجج معينة هي في الوقت نفسه حججٌ لنتيجة أخرى بعدها مما يشكل سلسة قولية مترابطة لغويًا ومعنويًا.

(٥) إنّ الخطاب الحجاجي للزيارة يعدّ موسوعة عقدية تبرز المعتقدات التي يرتكز عليها أصل الدين الإسلامي، فضلًا عما يرتكز عليه مذهب أهل البيت، من ذلك التأكيد المتكرر في ملفوظات الزيارة على مسألتَي العصمة، والرجعة.

(٦) في الملفوظات الشرطية يتم التصريح بالملفوظ العكسي وإن كان مفهومًا؛ لزيادة درجة توكيده وتقريره في نفس المتلقي أو المخاطَب.

(٧) اتسمت الملفوظات التقويمية بطاقة حجاجية عالية؛ لأنّها في الغالب ترتبط بمبادئ يحكمها العقل، الأمر الذي جعلها مؤثرة حجاجيًا في الخطاب.

(٨) إنّ الوظيفة الحجاجية لملفوظات الزيارة المباركة تؤسس في أغلب مفاصلها لفكرة «الظهور»، وتؤكد الامتداد الشرعي للرسالة المحمدية المتمثل بوريث الحق الشرعي الإمام الحجة المنتظر «عجل الله فرجه الشريف».

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

(١) استراتيجية الخطاب الحجاجي دراسة تداولية في الإرسالية الإشهارية العربية (بحث منشور)، بلقاسم دفة، مجلة المخبر «أبحاث في اللغة والأدب الجزائري»، العدد العاشر، ٢٠١٤م.

(٢) الأسس النظرية لبناء شبكات قرائية للنصوص الحجاجية، من ضمن موسوعة «الحجاج مفهومه ومجالاته»، عبد العزيز لحويدق، من ضمن موسوعة (الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة)، إعداد الدكتور حافظ إسماعيلي علوي،عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، ط١، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.

(٣) إنشاء النفي وشروطه النحوية والدلالية: الدكتور شكري المبخوت، مركز النشر الجامعي، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بجامعة منوبة، تونس، ٢٠٠٦م.

(٤) تصحيح اعتقادات الإمامية: محمد بن محمد بن نعمان العكبري المعروف بالشيخ المفيد (٣١٤هـ)،تح: حسين دركاهي، إيران– قم، ط٢، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

(٥) تفسير العياشي: محمد بن مسعود العياشي (ت ٣٢٠هـ)،تح: قسم الدراسات الإسلامية، مطبعة مؤسسة البعثة، قم، ط١، ١٤٢١هـ.

(٦) تفسير القمي: أبو الحسن علي بن إبراهيم القميّ (ت ٣٠٧هـ)، تعليق: السيد طيب الموسوي الجزائري، منشورات مكتبة الهدى، مطبعة النجف، ١٣٨٧هـ.

(٧) جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ)،تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م.

(٨) الحجاج بين النظرية والأسلوب عن كتاب «نحو المعنى والمبنى»: باتريك شارودو، ترجمة: د. أحمد الودرني، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.

(٩) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية:عبد الله صولة، الناشرون: دار الفارابي، بيروت – لبنان،وكلية الآداب والفنون والإنسانيات– تونس، ودار المعرفة للنشر – تونس، ط٢، ٢٠٠٧م.

(١٠) السيميولسانيات وفلسفة اللغة (بحث في تداوليات المعنى والتجاوز الدلاليّ):الدكتور عبد السلام إسماعيلي علوي، دار كنوز المعرفة، عمان – الأردن، ط١٤٣٨،١هـ– ٢٠١٧م.

(١١) عقائد الإمامية: محمد رضا المظفر، مركز الأبحاث العقائدية، قم – إيران،ط٢، ١٤٢٢هـ.

(١٢) العوامل الحجاجية في اللغة العربية: الدكتور عز الدين الناجح، دار نهى للطباعة، صفاقس – تونس، ط١١،٢٠١١م.

(١٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: محمد بن علي ابن بابويه القمي المعروف بـ«الصدوق» (ت٣٨١هـ)، تعليق حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م.

(١٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت،ط١٤٠٧،٣هـ.

(١٥) الكشف والبيان عن تفسير القرآن المعروف بـ (تفسير الثعلبي): أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، (ت ٤٢٧هـ)، تح: أبو محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

(١٦) لسان العرب: محمد بن مكرم جمال الدين ابن منظور الأنصاريّ (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

(١٧) لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة (فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة): د. عبد الفتاح أحمد يوسف، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت– لبنان،ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.

(١٨) اللغة و الحجاج: الدكتور أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط١، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٦م.

(١٩) مجمع البيان في تفسير القرآن: أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسيّ (ت٥٤٨هـ):تح: السيد هاشم الرسوليّ المحلاتي،دار إحياء التراث العربيّ، بيروت – لبنان،ط١، ١٣٧٩ هـ ق، ١٣٣٩هـ ش.

(٢٠) المظاهر اللغوية للحجاج (مدخل إلى اللسانيات الحجاجية): رشيد الراضي،المركز الثقافي العربي، ومؤسسة مؤمنون بلا حدود، المملكة المغربية، ط ١، ٢٠١٤م.

(٢١) معاني النحو: الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار إحياء التراث،ومؤسسة التأريخ العربي، بيروت – لبنان، ط١٤٢٨،١هـ – ٢٠٠٧ م.

(٢٢) من لا يحضره الفقيه: محمد بن علي ابن بابويه القمي المعروف بـ» الصدوق» (ت٣٨١هـ)، تح: حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٥، ١٣٩٠هـ.